مقـــدمة

بقلم زعيم المدرسة الحديثة الأبتداعية

الاستاذ عباس محمود العقاد

* * *

يقول صديق عماد فى التمهيد لديوانه العـــامر :
« لا أعرف لى قصيدة واحدة فى هذا الديوان لم تكن خلجة فى نفسى ، قبل أن تكون كلاما على لسانى » .

وفى إحدى قصائده يقول :

لنفسى لا للناس أرتجل الشعرا
فما أبتغى منهم جزاءً ولا شكراً
فمن يرض عنى بعد ذاك فشأنه
لقد صادفت نفسى لدى نفسه أمرا

وقد عرفنا شاعرنا المجيد منذ فجر الشباب فعرفناه كما قال عن نفسه وكما قال عن شعره ، يقول ما يناجى به وجدانه ويوافق سجيته وسجية أمثاله ونظرائه ، ولا يعنيه

2271
.5037
.1949

بعد ذلك من يشيع بينهم هـذا النجاء ومن يقف منهم دون الآذان أو دون الرؤوس .

وأصح ما يفهم من هذه الصفة التى اتسم بهـا شعر هذا الديوان أنه مناجاة خاطر لخاطر ، ومطارحة قريحة لقريحة ، وليس هو بأعلان ولا بدعوة ملحة تلاحق النـاس لتطرق عليهم أبوابهم وتستثير منهم مكامن الشهوات والأهواء .

ولـكن لا يفهم من هذه الصفة بحال أننا نقرأ هنا شعراً منزوياً عن الدنيا ، معتزلا لمن فيها . فإننـا فى الواقع لا نعرف ديواناً أدل على زمنه وعلى أهله من ديوان صديقنـا عماد . لأن أحداث عصره شأن من شؤون نفسه ، وعارض من عوارض حسه ، فلا تفوته كشرفه العلمية ولا طوارقه السياسية سواء منها ما وقع فى بلده وبين قومه وما وقع فى بلاد العالم بأسره . ومن أمثلة هذه الشواغل العامة التى أحاط بها ديوانه قصيدة عن فلسطين مطلعها :

بنى يعرب نادت فلسطين فاسمعوا
وناداكمو عدنان فيهـا وتبّـع

وقصيدة عن قضية الحبشة مطلعها :

يا أمة بجـــوار تانا فوق الربى اتخذت مكانا

يقول فيها لدعاة الاستعمار باسم الأصلاح والهداية :

يا أولياءَ أمور هذا الكو ... ن حسبكم افتتانا
بلغ الصغير الرشد واطر ... ح الوصاية واستبانا
وأتى ينـاقشكم حسا ... ب الأرث أين، وكيف كانا؟
فخذوا دفاتركم وهـا ... توا عن وصايتكم بيانا

ويتساءل فى قصيدة أخرى عن ميثاق السلام :

أحق ما يقول العم سـام
بأن الأرض حل بها السلام ؟

أما شؤون مصر فقلما فاته منها شأن تختلج به خواطر قومه ، أو تعتلج به شجونهم ، وقد يغنى المثل الواحد منها عن أمثال كما قال فى قناة السويس :

بنى مصر أفيكم من حصاة ؟
إذن فخذوا بقولى فى القناةِ
إذا ما أمرها أفضى إليكم
بحق فى السنين القابلات
فخيرها بتدمير ودفن
بلا جزع عليها أو شكاة
وصبوا فوق جندلها حديداً
مخافة أن تعود إلى الحياة

والشاعر الذى تشغله هـذه الأحداث السياسية فى زمانه يتتبع كشوفه العلمية فيعطيها ما هو حق لهـا من حسه وخياله ، ويتحدث عنها حديث الشاعر وحديث « ابن العصر » المشترك فيه بلبه وقلبه . فيذكر أثير العلماء ويعقب عليه تعقيب الشعراء :

دنيا تقوم على الأثير فمن ترى
هـذا الأثير محير الأفكار ؟
ترسو الشموس الشم فوق مداره
هذا المدار الجلد أى مدار ؟
العلم قال فصدقوه واهتـدوا
أما أنا فهداى من أشعارى

وتتوارد الأنباء عن اتصال العلمـاء بالقمر فيقول بلسـان الشعر تعقيباً على هذه الأنباء العلمية :

اليوم تبدأ عهد النحس يا قمر
فقد تسامى إلى أجوائك البشر
وما أفاض عليك الشعر من حلل
غرّ سينزعها التحقيق والنظر
أى الجميلات ترضى أن تكون لها
وجها إذا صكها من وجهك الحجر؟

ويذكر بعض المغربين فى نظريات التطور أن القرد أحرى أن يكون ابن الانسان ، لأن أمعاءه خلت من الزائدة الدودية ، فيبارك الشاعر هـذا الأغراب بمـا يستحق من بركة :

بارك الله ذلك النسل فينـا
وليبارك فى العلم هذا الجنونا
إنمـا الكون بعد هـذا بخير
أصبح القرد للرقىّ ضمينـــا

ولهذه المعانى وأشباهها نقول بحق إننـا لا نعرف شعراً أدل على زمانه من شعر هذا الديوان ، وإن كان شعر مناجاة بين صاحبه ونفسه، وبين صاحبه ومن يلبونه بالفهم والشعور .

ويحيط الديوان — الى جانب هذا — بأفق أوسع من أفق العلم والسياسة ، لأنه هو أفق الحيـاة الخالدة ، أو أفق الخلود فى مشكلة الأبدية . ولـكن هذه المشكلة فى شعر عماد مشكلة « لحم ودم » وليست مشكلة بحث ونظر ، لأنه يحسها فى نفسه وفى ولده ، ويمزج الرأى بحب الحى لحياته وعطف الوالد على بنيه .

ففى ذكرى ميلاده يقول :

فى مثل هـــذا اليوم من عام قريب أو بعيد
زاد البكاء بمصر صـو تا ساذجا فى يوم عيد

ثم يخاطب ذلك الوليد قائلا :

من أين يا ضيف الحيا ة أتيت ثم متى الرحيل ؟
وبأى كون سوف تخـ ـتم ذلك السفر الطويل ؟
كل إلى غرض يجـو ل فهل إلى غرض تجول ؟
أو أنت سهم طاش فاختر ق الخفاءَ إلى الوجود ؟

ويقول فى خطاب ولده :

إن تقـــل إنى جان لم أكن أول جان
من يعش بين ذنوب فبحـــقّ أذنبـــا

ويردف ذلك فى سخر المستسلم أو استسلام الساخر :

وإذا ما شئت وجه الحـ ـق فى أصـــل الوجود
نحن لم نذنب ولم نحـ ـسن بميـــلاد الوليد
إننـــا « آلات تفر يخ » أديرت من بعيد
لا ترى فى صنعها رأ يا لهـــا أو أربا

ويفقد وليدة فى الثانية من عمرها فيرثيها قائلا :

أترائىِ جئتِ لغاية وفرغت منها فى سلامْ ؟

***

صغرت لعمركِ غاية للكون تقضى فى شهورْ

وهـــو الذى غاياته قد أنقضت ظهر الدهور
هـل كان ينقصه إذا لم تولدى أمر جسام ؟

وفجيعة الرثاء الأبوى فى الطفولة المستنجدة بغير نجدة تجمعها كلها هذه الأبيات :

قد كنت تستدعين (با با) فى الصغير من الأمور
يا خزىَ (بابا) إذ تخلى عنك فى الأمر الخطير
فرأى الردى يعدو عليـ ـكِ ولا دفاع ولا ملامْ

ولو أن الحياة الأنسانية بين مظاهر الحياة المختلفة قد اتخذت لها أمنية ترددها لما نطقت فى التعبير عن أمنيتها بأصدق من هذين البيتين :

ياليتنـــا مثل الغصو ـن ربيعنـا يتجدد
لكننا مهما نعش فلنـــا ربيـع مفرد

ولو تساءلت الحياة الأنسانية على قبر لجمعت تساؤلها فى هذه الأبيات على قبر أبى العلاء بعد ألف عام :

فياضيف المنيـة ألف عام
أفيها قد عثرت على الرجاء ؟
أمن بعد الفنـاء يقر عينا
سخين العين من قبل الفناء ؟

أهذى الضجعة الكبرى أراحت

- كما قدرت - جسمك من عناء ؟

قضايا منطق لك أمس ماذا

لديك اليوم فيها من قضاء ؟

هذه الآماد التى اشتملت عليها مناجاة عماد هى فى الحق آفاق قد فتح لعرائس الشعر أبوابها ولم تكن من قبل مفتوحة لكل عروس توحى إلى كل شاعر ، فليس لقارىء أو ناقد أن يطالبه بأسلوب فى النظم كأساليبه المطروقة ، أو بنمط من التعبير كأنماطه المحفوظة . فإن كان فى أسلوب هذا الشعر خلاف يقع من الأذن موقع الغرابة فإنما هو الخلاف الذى يقع موقع الغرابة فى الأذهان والأخلاد من كل جديد غير مطروق ، ومن كل مبتدع غير محفوظ ، ويبقى للزمن أن يروض الأسماع من جهة ، ويروض البيان من جهة ، حتى يتزاوج اللفظ والمعنى فى ألفة العشراء والقرناء ، على وفاق واستواء ، ثم لا ينسى الزمن مع هذا فضل الشاعر الملهم الذى راض للشعر هذه المطايا الصعاب ، وفسح للنفوس والخواطر هذه الشعاب الرحاب ، وجاء بالجديد الذى يُصلح القديم ولا يزال يصلح على التجديد .

عباس محمود العقاد